التَّدبُّرُ وتجلياتُه في كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي ت 794هـ

The contemplation and it's manifestations in the book "Al Burhan fi ulum Al Koran" Zarkashy 794 e.

الدكتور خالد حويِّر الشمس
جامعة ذي قار كلية الآداب
Dr. Khalid Hawir Al Shams –
University of Dhi Qar Faculty of Arts.

كلمات مفتاحية :التَّدبُّر الدلالي / التدبر السياقي / التشكيل النحوي/ فقه اللغة

ملخص البحث

الحمدُ لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين...

يعد التَّدبُّر ضرورة مُلِحة في سيرورة الحياة وديمومتها، وهذا ممَّا لا ينكره أحد، فما بالك بتدبُّر القرآن، بغية تعلُّق القلب به، والأدهى من ذلك ذمَّ القرآن الكريم ووبَّخ الذين لا يتدبرونه في آيات معروفة منها ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

من ذينك القناعتين أقبلتُ صوبه، وحددته لدى عالم بعلوم الكتاب المكنون، وهو الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن). وحاولت في التمهيد أنْ أُعرِّف بالزركشي في البدء وبمنهجه في كتابه، ومن ثَمَّ جاء المبحث الأول للتعريف بالتَّدبُّر وبيان مفهومه بعيدًا عن الإطالة في قواعده، ومفاتيحه، وبعدها بيان وجهة نظر الزركشي في مفهومه. ثم بيان تجلياته وصوره لديه في المبحث الثاني، والملفت للنظر أنَّ صور التَّدبُّر كثيرة في كتابه، منها: النحوي، والصرفي، والصوتي، والسياقي، والتأويلي، ولسانيات الخطاب، ولسانيات الحجاج، والبلاغي، والتاريخي، والتعبيري نسبة إلى التعبير القرآني، وغير ذلك كثير ممَّا يتضح في البحث.

Abstract

The research passed on the contemplation and its manifestations in the book of Burhan for zakrashi (794 AH)، who spent a lot of time in the Quranic contemplation. He also sees the lack of understanding of the Qur'an outside the scope of the contemplation and its non-reading of a superficial reading. Rather، it is based on the data available to it. Based on the linguistic and communicational context through grammar، rhetoric، morphology، Sounds، speech، argument، deliberation، historical sciences، and other in a condition based on the Quranic context this، leads to the recognition that the contemplation is one of the methods of Quranic significance in Al Zarkashi in less Estimate.

God From behind the intent

المقدمة

فكرة البحث وفرضيته:

بيان منهج الزركشي في تدبُّر القرآن الكريم بناء على اتساع مفهومه وتجاوز بوتقة التأمل إلى أنَّه فهم النص القرآني على وفق العلوم المتوافرة عليه. وقد يقود هذا إلى تحيين كتاب الزركشي على وفق العلوم المتداولة اليوم للبرهنة على علوِّ منزلة الكتاب العزيز.

التمهيد: الزركشي ومنهجه

الزركشي لقبه، واسمه محمد بن بهادر بن عبد الله، ويُكنى بأبي عبد الله، ولادته سنة خمس وأربعين وسبعمائة هجريَّة، تركي الأصل، مصري المولد والوفاة، من أشهر أساتيذه هما جمال الدين الأسنوي، وسراج الدين البلقيني. رحل إلى حلب إلى الشيخ شهاب الدين الأذرعي، وسمع الحديث بدمشق وغيرها. له مؤلفات عدة، منها: تشنيف المسامع بجمع الجوامع، التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح، رسالة في كلمات التوحيد. توفي يوم الأحد ثالث رجب الفرد سنة أربع وتسعين وسبعمائة، ودفن بالقَرَافة الصغرى بالقرب من تربة بكتمر الساقي[١].

ولو عطفنا الكلام على كتابه ينبغي بيان أهميته، وهي تأتي مطلقة في عنوانه (علوم القرآن)، إذ حوى الكتاب أغلب العلوم القرآنية من اللغات، وأسباب النزول، واللسانيات وغير ذلك.

والغاية من تأليفه يقول عنها: ((فاستخرت الله تعالى - وله الحمد - في وضع كتاب جامع لما تكلم الناس في فنونه... ليكون مفتاحًا لأبوابه، عنوانًا على كتابه، معينًا للمفسر على حقائقه، ومطلعًا على بعض أسراره ودقائقه، والله المُخلِّص والمُعين، وعليه أتوكل، وبه استعين))[٢].

هذا النص يجعلك تطمئن إلى أنَّ برهان الزركشي هو فعلًا للبرهنة على نصية القرآن الكريم عبر منهج التَّدبُّر وهو ليس تفسيرًا، وذلك الهدف دلّ عليه الزركشي باتخاذ منهج يمكن تلخيص سماته على شَكْل نقاط:

- تناول العلوم المتوافرة على القرآن الكريم.
- اتسم بالتنظيرية، فقد ذكر القواعد الأساسية لفهم النص القرآني ممَّا يحتاجها المفسر.
- يتزاوج مع التنظير التطبيقُ، إذ يحاول توكيد القواعد التي يذكرها، فيعطي نماذج من القرآن مع استجلاء دلالاتها.
- يستطرد في كل مبحث ويذكر فوائد، وفصول، وتنبيهات كما يسميها تتعلق بالموضوع.
- يعتمد على السابقين كثيرًا، ويصرح بأسمائهم، قال: مجاهد، سيبويه، ابن فارس، الواحدي، الغزالي، الزمخشري، ابن العربي، الحرَالِّي، الكيهراسي، ابن الحاجب.
- من أبرز المعالم المنهجية لديه استعماله كلمة

(قيل)، وأسلوب العطف في فهمه للآيات القرآنية (وكقوله تعالى).

- تنوعت مصادره بين كتب التفسير، واللغة، والبلاغة. والنحو، وغير ذلك.

- يستطرد بالأمثلة على الظاهرة الواحدة[٣].

- ومن الملاحظ على منهجه، أنَّه قد يوجد فيه ما هو خارج نطاق التَّدبُّر، والسير الدلالي، أي دراسة وصفية للظاهرة القرآنية أو تتبعية، نحو: معرفة ما فيه من غير لغة العرب[٤].

المبحث الأول: التَّدبُّر في المعنى، والمفهوم لدى الزركشي

الهدف من هذا المبحث بيان المعنى المعجمي والتعريفي للتدبُّر، ومن بعد بيان مفهومه لدى الزركشي من خلال نصوصه في كتابه أو من خلال ما يستشف من كلامه.

تكاد لن تختلف المعجمات في مفهوم التَّدبُّر والتدبير، فهما مأخوذان من الثلاثي (دبر) وقد أرسى دلالته الأصلية ٱبن فارس ت٣٩٥هـ في مقاييسه، فهو يدل في أصله على خلاف القُبُل، فيقول: ((دبر: الدال، والباء، والراء، أصل هذا الباب، أنَّ جُلَّه في قياس واحد، وهو آخر الشيء وخلفه خلاف قَبُله. وتشذ عنه كلمات يسيرة نذكرها. فمعظم الباب أنَّ الدُبر خلاف القُبُل))[٥].

والتَّدبُّر هو تفعُّل لمطاوعة التفعيل (التدبير) معناه سياسة الأمور، والنظر، والتصرُّف، والتفكر فيها إلى ما تصير إليه عاقبتها بعد حُسْن القيام عليها[٦]. وسيكون مفهومه أنَّ الزركشي يتعقب النص القرآني بحثًا عن حسن قيامه، وروعة بيانه على وفق المعطى التكويني له بمساعدة الخيال الخصب له.

وقد يخيل للبعض انحصار مفهوم التَّدبُّر وتخصيصه عند قراءة القرآن الكريم، يتأمل القارئ بعد القراءة على مُكث، فيتبادر إلى ذهنه المعاني والدلالات القرآنية بفعل ذلك التَّدبُّر. والجزم بإطلاق ذلك المعنى يكون غير وجيه، فالأمر ليس كذلك، بل ((هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة، ومعنى تدبّر القرآن: هو التفكر والتأمل لآيات القرآن من أجل فهمه وإدراك معانيه، وحكمه، والمراد منه))[٧].

والتِمَاس الدلالة من هذا المنطلق يعني التعامل على أنَّ التَّدبُّر منظومة أو قاعدة كلية يمكن للفرد استعمالها وتوظيفها في مجاري الحياة، وعلى وجه التحديد في القرآن الكريم، انطلاقًا من معناه في اللغة، فيكون مرادفًا للبحث والتنقيب من نظر اللغويين، فقد جعله الرُّماني ت ٣٨٤هـ في فصل (البحث والتنقيب) من كتابه (الألفاظ المترادفة والمتقاربة في المعنى): ((فصل: البحث والتنقيب: فتَّش، وفحص، ونقَّب، وقرَي، واستقر، واقتصَّ أثره، وتتَّبعه، وتطلَّبه،

وبحث، وتصفَّح، ونقَّر، واستبرأ، وتدبَّر، وتأمَّل))[٨].

وهذا التبني قد يدخل التفسير في مفهوم التَّدبُّر في نظر المعترِض! نعم قد يدخل التفسير في التَّدبُّر، مع الإقرار بالفرق بينهما إذ يكون التفسير على وفق منطلقات وقبليات معروفة، إمَّا لغوية أو فكرية نحو: الأثر، والاعتزال، والأشعرية، والأدبية، والتصوف، وهذا ما يُخرجه من التَّدبُّر فضلًا عن معناه اللغوي الدال على الإبانة والإيضاح من الفسر[٩]. مع لحاظ الفارق المهم أنَّ التَّدبُّر يكون في القلب أحيانًا وقد يكون في العلن.

وفي هذا السياق أودّ التنويه بأنَّ كتاب الزركشي ليس تفسيرًا، ومنهجه ليس منهج المفسر فيه، بل هي تأملات لقواعد يضعها في التَّدبُّر.

والأسباب التي دفعته إلى تدبُّر القرآن هي عينها التي تدفع بأي شخص آخر من المسلمين، وبهذا الصدد يقول المفكر الشهيد محمد باقر الصدر: ((ومن الطبيعي أن يتخذ الإسلام هذا الموقف ويدفع المسلمين بكل ما يملك من وسائل الترغيب إلى دراسة القرآن والتَّدبُّر فيه؛ لأنَّ القرآن هو الدليل الخالد على النبوة، والدستور الثابت من السماء للأمة الإسلامية في مختلف شؤون حياتها، وكتاب الهداية البشرية الذي أخرج العالم من الظلمات إلى النور وأنشأ أُمة وأعطاها العقيدة، وأمدّها بالقوة وأنشأها على مكارم الأخلاق، وبنى لها أعظم حضارة عرفها الإنسان إلى يومنا هذا))[١٠].

ويعدّ التَّدبُّر أصل الوقوف على المعنى القرآني في منظور الزركشي، مشروطًا بالصفاء والابتعاد عن أوساخ الحياة وقاذوراتها، فضلًا عن الاطلاع الغزير والعلم الكثير، فيقول: ((أصل الوقوف على معاني القرآن التَّدبُّر والتفكر: واعلم أنَّه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة وفي قلبه بدعة أو إصرار على ذنب، أو في قلبه كِبْر أو هوًى، أو حب الدنيا، أو يكون غير متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو معتمدًا على قول مفسر ليس عنده إلاّ علم بظاهر، أو يكون راجعًا إلى معقوله؛ وهذه كلها حجب وموانع))[١١].

وفي نص من موضع آخر يؤكد الزركشي سعة الاطلاع وأثرها في تدبر القرآن وفهمه: ((وإنَّما يفهم معانيه، ويطلع على أسراره ومبانيه، من قوي نظره واتسع مجاله في الفكر وتدبَّره، وامتد باعه، ورقَّت طباعه، وامتد في فنون الأدب، وأحاط بلغة العرب))[١٢].

إنعام النظر في هذا النص يؤكد الأُطروحة في هذا البحث باتساع مفهوم التَّدبُّر خارج نطاق ظرف تلاوة القرآن وترتيله، لذا يمكن تنميطه لدى الزركشي على نمطين:

الأول: تدبّر رئيس إذ تأمل وتدبَّر وفكَّر بالمنتوج

القرآني نفسه، بإبراز محاسنه الإعجازية وجمالياته البلاغية.

الثاني: تأسيس قواعد التَّدبُّر والتوجيه إليها، إذا نظرنا نظرة إجمالية لعمله، ومنها ما أقره وما أسس له حينما أعطى المفسر القواعد الضرورية لديه.

وكان التَّدبُّر لديه بحسب العلوم الكائنة في النص الكريم، مع امتلاكها سمة الاختصار والابتعاد عن الإطالة، فإذا جئنا إلى المنزع النحوي، فهو لم ينل منه نوالًا كاملًا، بل مجرد إشارات، وكذلك الصرف، وتفسير ذلك بغية الإلمام بعلوم النص القرآن الكريم في موسوعته.

المبحث الثاني: تجليات التَّدبُّر في كتاب البرهان

أسهب الزركشي في تدبُّر القرآن الكريم بفعل فكره ورويَّته الموَزَّعة على المفاصل القرآنية الواردة ضمنه، فتنوعت تلك الصور التدبيرية بتنوع العلوم القرآنية، وقد ينال البحث من تلك التجليات باختصار مجرد الإشارة إلى ثقافته العالية في منهجه التدبيري القرآني، ومن أولى التجليات التي أقف عليها هو التَّدبُّر السياقي. فلا يستطيع إي واحد من المفسرين تدبُّر النص القرآني ما لم ينطلق من السياق، إذ إنَّه عامل أساس في فهمه وتأويله. وعُدَّت نظرية السياق حجر الأساس في استجلاء الدلالة. وقسم السياق في البحث الألسُني على السياق اللغوي(ما يسبق الكلمة وما يليها)، والسياق الحالي (الظروف الخارجية التي يقع فيها الكلام)[١٣]، اهتم الزركشي بهذا النوع الثاني وبيَّن فوائده، ومن أهمها: بيان وجه الحكمة في تشريع الحكم وتخصيصه، وإيضاح المعنى، ودفع التوهّم والحصر، وإزالة الإشكال. ثم برهن على أثرها في فهم النص من خلال الجانب التطبيقي وأخذ آيات عدة، منها: ﴿إنَّ من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم﴾ [١٤]، فيقول عن سبب النزول: ((فإنَّ سبب نزولها أنَّ قومًا أرادوا الخروج للجهاد فمنعهم أزواجهم وأولادهم، فأنزل الله هذه الآية))[١٥].

ومن تلك التجليات التَّدبُّر النصي. علم النص من العلوم التي تبحث النصية من جهة الاتساق، والانسجام (الدلالة)، والتداولية في ضوء الأفعال الإنجازية. ومن آليات الاتساق الإحالة[١٦]، سمَّاها القدماء بـ(عود الضمير)، والتزم هذه التسمية أيضا الزركشي، فقال عنه : ((كقوله تعالى: أو يعفو الذي بيده عُقدة النكاح فالضمير في (يده) يحتمل عوْده على الولي وعلى الزوج، ورجح الثاني لموافقة القواعد))[١٧].

درس في مفصل الدلالة ما سُمِّي بعَلَاقات الانسجام، ومن أبرز خطواته في النص القرآني المناسبة بين الآيات[١٨]، وعدَّها الزركشي ممَّا تُبَيِّن قدرة القائل، وتجيء لتقارب المعاني: ((وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها، مرجعها –والله اعلم- إلى معنى رابط بينهما: عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي،

وغير ذلك من أنواع العَلَاقات/ أو التلازم الذهني: كالسبب والمسبّب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين، ونحوه))[١٩].

وبعد ذلك لجأ إلى مجال التطبيق في القرآن الكريم وتدبَّر التناسُب بين السور: ((وكافتتاح سورة الحديد فإنَّه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به))[٢٠].

وأخذ التَّدبُّر الدلالي نصيبه في كتاب البرهان، بل نصيبه الغزير، ومن ذلك في موضوع الوجوه والنظائر، وكعادته بدأ يُنَظِّر ويتكلم على مفهومهما، فعنده الوجوه: ((اللفظ المشترِك الذي يستعمل في عدة معان، كلفظ الأمة، والنظائر كالألفاظ المتواطئة))[٢١].

ثم تدبَّر الأمثلة لذلك في القرآن الكريم على وفق السياق القرآني، ومنها لفظة (الهدى)، فدلت على سبعة عشر حرفًا، منها: البيان، والدين، والإيمان، والداعي، والمعرفة، والرشاد، والقرآن، والتوراة، والحجة[٢٢].

وقد نوَّه على مشتركات مهمة من خلال طريقة أُخرى تراها في بيان وجوه (بعل)، فتدل على الزوج أينما وردت في القرآن إلا في موضع واحد فإنَّها تدلّ على الصنم: ((وما في القرآن من ذكر البعل فهو الزوج كقوله تعالى﴿ وبعولتهن أحق بردهن إلاّ حرفًا واحدًا في الصافات أتدعون بعلًا فإنَّه أراد صنمًا﴾))[٢٣].

وقد تطلع صاحبنا إلى دلالة النص عِبْر مقولة الحذف في قوله تعالى: ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾ فقال: ((أي مبصرة، فظلموا أنفسهم بقتلها، وليس المراد أنَّ الناقة كانت مبصرة لا عمياء))[٢٤].

وهناك تدبُّرُ التعبيرات القرآنية، أي البحث في روعة التعبير ومقصده لـ((أنَّ التعبير القرآني تعبير فني مقصود، كل لفظة بل كل حرف فيه وضع وضعًا فنيًّا مقصودًا))[٢٥].ومن ذلك في روعة الترتيب، فقد ذكر الباري الرحمة قبل العذاب، وما خرج من هذه القاعدة بِذْكر العذاب قبل الرحمة، بين العلة منه: ((ومنها: قوله في سورة العنكبوت: ﴿ يعذِّب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون﴾؛ لأنَّها في سياق حكاية إنذار إبراهيم لقومه))[٢٦]. ومن تلك التعبيرات الفرق بين خطاب الاسم وخطاب الفعل في الاستعمال القرآني: ((وقوله ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم﴾ لو قيل: ((رازقكم)) لفات ما أفاده الفعل من تجدد الرزق شيئًا بعد شيء، ولهذا جاءت الحال في صورة المضارع))[٢٧].

لا أريد الإطالة في مبحث التدبيرات التعبيرية[٢٨]، لكي لا ننشغل عن تدبُّرِهِ التأويلي للنص القرآني. فقد يعدّ التأويل للنص القرآني بمثابة الهيكل العظمي للإنسان، بل أكثر من ذلك فيكون ضرورة ملحّة عند الاشتغال عليه لكشف أسراره، والمراد به في أرجح مفاهيمه لدى السيد كمال الحيدري بحسب نقله له عن ابن تيمية ت ٧٢٨هـ في التفسير الكبير((صرف اللفظ

عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به))[٢٩]، فتكون وظيفة المتأول حينها بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادعاه، وكذلك الدليل الموجب للصرف عن معناه الظاهر[٣٠]، وهذا المفهوم عينه تجده لدى الزركشي، فيراه ما يحتمل المعنيين أو أكثر[٣١]، وصرف المعنى إلى المضمر في كقوله تعالى ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ فإنَّه يستحيل حمله على الظاهر؛ لاستحالة أنْ يكون آدمي له أجنحة، فيحمل على الخضوع وحُسن الخلق))[٣٢].

تلحظ أنَّ مقولة الاحتمال كانت على مستوى الاستعارة، وقد كانت على مستويات أُخر لديه، ومنها ما كان في علم المعاني: ((وممَّا يحتمل قوله تعالى ﴿ فاقذفيه في اليم فلْيُلْقَه اليمُّ بالسَّاحل﴾ فإنَّ ((فليلقه)) يحتمل الأمر والخبر، كأنَّه قال: فاقذفيه في اليَمِّ يلقيه اليم، ويحتمل أنْ يكون أمرًا بإلقائه))[٣٣].

وتتضح شمولية كتابه لمَّا تتبع النص القرآني في ضوء فقه اللغة، الذي يعنى بالتدبير التاريخي للظاهرة اللغوية، فقد بحث اللغات التي نزل بها القرآن الكريم، فذكر أنَّه على سبعة أو ثلاثة أو أكثر، وأورد أقوال السلف في معاني السبعة، فكانت المُشكل أو القراءات أو سبعة أنواع: أمر، نهي، وعد ووعيد، قصص، حلال وحرام، محكم ومتشابه، وأمثال ذلك. أو لغات لسبع قبائل من العرب، أو سبعة أوجه من المعاني المختلفة، أو سبعة أوجه من الإعراب في بعض الآيات، أو بعض علوم القرآن، نحو: الإثبات، والإيجاد، والتوحيد، والتنزيه[٣٤].

أمّا التتبع الصرفي وقف عنده بعد أنْ عرف بالتصريف ((وهو ما يلحق الكلمة ببنيتها))[٣٥]، ثم ذكر أقسامه، وفائدته، إلى أنْ تدبَّر الآيات التي تؤثِّر فيها البنية الصرفية بمجرد تغييرها، فتتحول من دلالة إلى أخرى ((وقال تعالى: ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾ وقال تعالى: ﴿ واقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾؛ فانظر كيف تحوّل المعنى بالتصريف من الجور إلى العدل))[٣٦].

وكان التشكيل النحوي سببًا للتدبر في الكتاب أيضًا، وبدأ يؤكد أهميته بقوله: ((وعلى الناظر في كتاب الله، الكاشف عن أسراره النظر في هيئة الكلمة وصيغتها ومحلها، ككونها مبتدأ أو خبرًا، أو فاعلة أو مفعولة، أو في مبادئ الكلام أو في جواب، إلى غير ذلك من تعريف أو تنكير، أو جمع قلة أو كثرة، إلى غير ذلك))[٣٧].

ويوجب في الوقت نفسه على المُتدبِّر نحويًّا مراعاة أمور، منها معرفة معنى الكلمة المفردة أو التركيب قُبَيل الإعراب كما في (كلالة): ((ولهذا قالوا في توجيه النصب في (كلالة) في قوله تعالى ﴿ وإن كان رجل يورث كَلالة﴾ أنَّه يتوقف على المراد بالكَلالة، هل هو اسم للميت، أو للورثة، أو للمال؟))[٣٨].

وأجهد نفسه الزركشي ببيان الدلالة النحوية، لا

سيَّما في الإعراب: ((احتمال الفعل للجزم والنصب فمنه: قوله تعالى: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾، يحتمل أنْ يكون ما بعد الفاء مجزومًا، ويحتمل أنْ يكون منصوبًا، وإذا كان مجزومًا كان داخلًا في النهي، فيكون قد نهي عن الظلم، كما نهي عن قربان الشجرة، فكأنَّه قال: ولا تقربا هذه الشجرة فلا تكونا من الظالمين))[٣٩].

كثر التَّدبُّر النحوي إلى حد الغاية بخاصة في الجزء الأخير من الكتاب، ذكر فيه الأدوات النحوية اللازم معرفتها من لدن المفسر ويكاد يكون الجزء الأخير مختصًّا بهذا الشأن، ومن ذلك الأداة (ثم) في قوله: ((وأمّا قوله: ﴿خلقكم من طين ثم قضى الأجل﴾ وقد كان قضى الأجل، فمعناه: أخبركم أني خلقته من طين، ثم أخبركم أني قضيت الأجل، كما تقول كلمتك اليوم ثم كلمتك أمس))[٤٠].

ويمثّل التَّدبُّر البلاغي نمطًا آخر في الكتاب، حتى كاد يغلب على الكتاب فتشاطر مع النحو النصيب، وكان في أبواب البلاغة المعروفة على مستوياتها الثلاثة. تجنبًا للإطالة نأخذ مثالًا عن الكناية، فيقول: ((فمن أسبابها ترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه، كقوله تعالى﴿إنَّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة﴾))

فكنّى بالمرأة عن النعجة كعادة العرب، أنَّها تكنى بها عن المرأة))[٤١].

وتدبّر الألفاظ تدبرًا مجازيًّا على وفق علاقاتها، ومنها عَلَاقة اطلاق اسم الجزء على الكل: ((كقوله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ أي ذاته))[٤٢].

وقد ولج الزركشي التَّدبُّر الصوتي المترتب على الصوت اللغوي، ولَجه مباشرة هذه المرة من دون أنْ ينظِّر للمسألة، واستخرج الدلالات المترتبة على الإبدال الصوتي في الحروف، وعقد فصلًا (في حروف متقاربة تختلف في اللفظ لاختلاف المعنى) وأدرج هذا الفصل ضمن خط المصحف ورسمه ((مثل ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ ﴿وزادكم في الخلق بصطة﴾، ﴿يبسط الرزق لمن يشاء﴾ ﴿والله يقبض ويبصط﴾)) فبالسين السعة الجزئية كذلك علة التقييد، وبالصاد السعة الكلية، بدليل علو معنى الاطلاق، وعلو الصاد مع الجهارة والاطباق))[٤٣].

وإذا انتقلت إلى علم الحجاج، أجده قد تَدبَّر مواضعه، ونوَّه عليه في فصل (إلجام الخصم بالحجة) وقال في تعريفه: ((وهو الاحتجاج على المعنى المقصود بحجة عقلية، تقطع المعاند له فيه))[٤٤].

ثم قدَّم الأدلة الحجاجيَّة في الاستدلال على المعاد الجسماني: ((ومن ذلك الاستدلال على المعاد الجسماني بضروب: أحدهما: قياس الإعادة على الابتداء، قال تعالى: ﴿كما بدأكم تعودون﴾، ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾، ﴿أفعيينا بالخلق الأول﴾))[٤٥].

فضلًا عن أنواع الحجج التي بحثها الدرس

الألسُني الحجاجي الحديث المتمثلة بالقرآن الكريم، نوَّه الزركشي بنوع آخر من الحجاج هو الحجاج المنطقي الذي تبنَّاه (شايم بيرلمان)، المستنتج من النص: ((ومنه نوع منطقي وهو استنتاج النتيجة من مقدمتين، وذلك من أول سورة الحج إلى قوله: ﴿وأنَّ الله يبعث من في القبور﴾ فنطق على خمس نتائج من عشر مقدمات؛ فالمقدمات من أول السورة: ﴿وأنبت فيها من كُلِّ زوجٍ بهيجٍ﴾، والنتائج من قوله: ﴿ذلك بأنَّ الله هو الحق﴾ إلى قوله: ﴿وأنَّ الله يبعث مَن في القبور﴾))[٤٦].

وفي سياق التَّدبُّر المنضوي في الألسُنية الحديثة نجد تدبرًا في لسانيات الخطاب التداولي لاسيَّما (مبدأ التأدب) الذي جاءت به (روبين لاكوف)، ومفاده (كن مؤدبًا في خطابك)[٤٧]؛ لاستقامة التواصل الإنساني والتعامل الأخلاقي، وهنا المخاطِب هو الله تعالى، راعى في حيثيات خطابه المتلقي بعيدًا عن خدش الحياء حفاظًا على ماء وجهه. أدرك الزركشي الأمر، وعقد بابًا بعنوان (التأدب في الخطاب بإضافة الخير إلى الله وأنَّ الكل بيده) ((كقوله تعالى ﴿أنعمت عليهم﴾ ثم قال ﴿غير المغضوب عليهم﴾، ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم. وقوله : ﴿بيدك الخير﴾، ولم يقل: ((والشر)) وإنْ كان جميعًا بيده، لكن الخير يضاف إلى الله تعالى إرادة، ومحبة، ورضا، والشر لا يضاف إليه إلاّ إلى مفعولاته؛ لأنَّه لا يضاف إلى صفاته ولا أفعاله، بل كلها كمال لا نقص فيه))[٤٨].

ويرتبط بهذا الحقل اللساني أنماط الخطاب لمَّا حاول الزركشي تنميط الخطاب القرآني بعد جولات تدبُرية، وصلت تلك الأنماط إلى ثلاثة وثلاثين نمطًا أو وجهًا، منها خطاب العام ويراد به العموم كقوله تعالى ﴿إن الله بكُلِ شيءٍ عليم﴾. ومنه خطاب النوع، نحو: ﴿يا بني إسرائيل﴾ والمراد بنو يعقوب، ومنه خطاب العين ﴿يا آدمُ اسكُن أنتَ وزوجُكَ الجنةَ﴾ ، ومنه خطاب الجمادات خطاب مَنْ يعقل ﴿يا جبال أوِّبي معه﴾ [٤٩].

تندرج تلك التدبيرات التي سجلتها في ما يمكن تسميته التَّدبُّر اللساني، يقابله التَّدبُّر غير اللساني، ومنه التَّدبُّر التناصي بتسمية النقد الحديث على يد جوليا كرسطيفيا، وسمَّاه الزركشي المعاضدة[٥٠]، وهذا يكثر في المناسبة بين القرآن والحديث النبوي الشريف، وعقد له بابًا (في باب معاضدة السُنة للقرآن) وتدبّر الآيات والأحاديث المتوافقة ((ومن ذلك قوله تعالى ((إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفَّدت الشياطين)) في مفهوم قوله تعالى ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ إلى أنَّ الصوم ينتهي نفعه إلى اكتساب التقوى))[٥١].

وأطال الزركشي الوقوف على الخط في القرآن متدبرًا؛ لأهميته ولاختلاف الناس في رسم المصحف، فأخذ يقارن بين الخطوط ورسم الكلمات رابطًا الأمر بالدلالة، ومنه سقوط الألف في بعض الأفعال من بعض المواضع القرآنية لعلَّةٍ ((وكذلك ﴿وجاءو

بسحر عظيم﴾ ﴿وجاءو ظلمًا وزورًا﴾ ﴿وجاءو أباهم﴾، ﴿وجاءو على قميصه﴾، فإنَّ هذا المجيء ليس على وجهه الصحيح))[٥٢].

كان المثال بحذف حرف وتوجد أمثلة أخرى بزيادة حرف في قوله: ((الزائد الثاني: الواو، زيدت للدلالة على ظهور معنى الكلمة في الوجود في أعظم رتبة في العيان مثل: ﴿ سأوريكم دار الفاسقين﴾، ﴿سأوريكم آياتي﴾. ويدل على ذلك أنَّ الآيتين جاءتا للتهديد والوعيد))[٥٣].

ومن المشاغل الأُخر في كتابه المشغل التأريخي للنص القرآني، فقد حاول إفراز المكي من المدني في الآيات على وفق البعد التاريخي والضوابط التي وضعها من سبقه ففصَّل القول فيها[٥٤]، ثم تتبع ما نزل في كل بلد، فبعضه بالجحفة وبيت المقدس، والطائف، والحديبية، وبحث ما نزل في الأزمان، فمنها في الليل ومنها في النهار[٥٥].

وهناك لون آخر هو دفع التناقض عن القرآن وتنزيهه عن المطاعن، فعرض الزركشي آراء السابقين ثم دفع التعارض بأمثلة قرآنية منها: ((ومثل قوله ((ولا تقتلوا الصيد وانتم حرم)) ونهيه تعالى عن قتل صيد مكة مع قوله تعالى ﴿ يسألونك ماذا احل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين﴾ فجعل النهي فيمن اصطاده في الحرم، وخص مَن اصطاده في الحل وأدخله حيًّا فيه))[٥٦].

وكما هو جامع كتاب البرهان فلم يترك أحكام ترتيل القرآن وتجويده، ومنه في باب الوقف والابتداء وربطه بالدلالة ((وهو فن جليل، وبه يعرف كيف أداء القرآن. ويترتب على ذلك فوائد كثيرة، واستنباطات غزيرة. وبه تتبين معاني الآيات، ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات))[٥٧]. والأمثلة كثيرة منها: ((ومثله الوقف على قوله ﴿رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها﴾ والابتداء بقوله ﴿ما كتبناها عليهم﴾ وذلك للإعلام بأنَّ الله تعالى جعل الرهبانية في قلوبهم أي خلق، كما جعل الرأفة والرحمة في قلوبهم وإنْ كانوا قد ابتدعوها فالله تعالى خلقها))[٥٨].

ختام البحث:

في الخاتمة ليس بوسعنا إلاّ القول إنَّ الزركشي أطال في التَّدبُّر القرآني، وإنَّه يرى عدم فهم القرآن خارج التَّدبُّر ونطاقه، بل هو أساس فيه على وفق المعطيات المتوافر عليه، ولا يكون إلاّ على وفق التكنيك اللساني والتواصلي له عِبْر النحو، والبلاغة، والصرف، والصوت، والخطاب، والحجاج، والتداولية، والعلوم التاريخية وغير ذلك، شريطة الارتكاز على السياق القرآني، وهذا يقود للاعتراف بأن التَّدبُّر هو طريق من طرائق الدلالة القرآنية لدى الزركشي في أقل تقدير.

الهوامش

١- ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٨/ ٥٧٢- ٥٧٣، و: الأعلام قاموس وتراجم: ٦/ ٦٠- ٦١، و: البرهان في علوم القرآن (مقدمة المحقق): ١/ ١١- ١٣.

٢- البرهان:١ / ٣٠.

٣- للتأكد من الملاحظ المنهجية التي ذُكِرَت ينظر: البرهان: ١/ ٤٦٥، ٤/ ١٩٣، ٢/ ٢١٧، ٣/ ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦.

٤- ينظر: البرهان: ١ / ٣٥٩ وما بعدها.

٥- معجم مقاييس اللغة: ٢/ ٣٢٤. وينظر: مفردات ألفاظ القرآن: ٣٠٧.

٦- ينظر: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ٤٠٢، والمعجم الوسيط: ٢٦٩، و: التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٣/ ١٩٣- ١٩٤.

٧- مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة : ٣.

٨- الألفاظ المترادفة والمتقاربة في المعنى: ٣١- ٣٢.

٩- ينظر: كتاب العين ٧/ ٢٤٧- ٢٤٨.

١٠- المدرسة القرآنية: ٣١٦.

١١- البرهان: ٢/ ١٩٧.

١٢- البرهان: ١/ ٢٣.

١٣- ينظر: دلالة السياق: ٤٠.

١٤- سورة البقرة: ١١٥.

١٥- البرهان: ٥٣.

١٦- ينظر: لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والإجراء: ٤٥- ٤٦.

١٧- البرهان: ٢/ ٢٣٠- ٢٣١.

١٨- ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق : ٩٩ وما بعدها.

١٩- البرهان: ١/ ٦٢.

٢٠- البرهان: ١/ ٦٤- ٦٥.

٢١- البرهان: ١/ ١٣٤.

٢٢- ينظر: البرهان: ١/ ١٣٤- ١٣٦.

٢٣- البرهان: ١/ ١٣٧.

٢٤- البرهان: ٢/ ٢٣٠.

٢٥- التعبير القرآني: ١٢.

٢٦- البرهان: ٤ / ٧٧.

٢٧- البرهان: ٤/ ٧٩.

٢٨- ينظر: البرهان: ١/ ١٥٠، ١٨٥، و: ٤/ ١٩٩.

٢٩- أصول التفسير والتأويل: ٢٢١.

٣٠- ينظر: أصول التفسير والتأويل: ٢٢١.

٣١- ينظر: البرهان: ٢/ ١٦٤- ١٦٥.

٣٢- البرهان: ٢/ ٢٢٤.

٣٣- البرهان: ٢/ ٢١٦.

٣٤- ينظر: البرهان: ١/ ٢٦٩- ٢٨٧.

٣٥- البرهان: ١/ ٣٧٣.

٣٦- البرهان: ١/ ٣٧٣- ٣٧٤.

٣٧- البرهان: ١/ ٣٧٨.

٣٨- البرهان: ١/ ٣٧٨.

٣٩- البرهان: ٤/ ١٦٧.

٤٠- البرهان: ٤/ ٢٩٦.

٤١- البرهان: ٢/ ٣٠٥.

٤٢- البرهان: ٢/ ٢٨٠. وتدبر الترديد، والالتفات، والتشبيه، والاستعارة، والطباق، والمقابلة، والتعديد، وغير ذلك، ينظر على التوالي: البرهان: ٣ / ٣٤٧، ٣٦١، ٤٧٢، ٤٨٩، ٥١٢، ٥٣١.

٤٣- البرهان: ١/ ٥٠١.

٤٤- البرهان: ٣/ ٥٢٤.

٤٥- البرهان: ٢/ ٣١.

٤٦- البرهان: ٣/ ٥٢٥.

٤٧- ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٢٤٠.

٤٨- البرهان: ٤/ ٧٠.

٤٩- ينظر: البرهان: ٢/ ٢٣٧- ٢٧٠.

٥٠- ينظر: البرهان: ٢/ ١٣٩.

٥١- البرهان: ٢/ ١٥٥.

٥٢- البرهان: ١/ ٤٦٣.

٥٣- البرهان: ١/ ٤٦٦.

٥٤- ينظر: البرهان: ١/ ٢٣٩- ٢٤٨.

٥٥- ينظر: البرهان: ١/ ٢٥٤- ٢٥٥.

٥٦- البرهان: ٢/ ٥٨.

٥٧- البرهان: ١/ ٤١٥.

٥٨- البرهان: ١/ ٤٢٥.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- أصول التفسير والتأويل، مقارنة منهجية بين آراء الطباطبائي وأبرز آراء المفسرين، تأليف السيد كمال الحيدري، ط١، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.

٢- الأعلام قاموس وتراجم، تأليف خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط١٥، ٢٠٠٢م.

٣- البرهان في علوم القرآن، تأليف بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت ٧٩٤هـ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٤٢٥- ١٤٢٦هـ - ٢٠٥٥م.

٤- التحقيق في كلمات القرآن الكريم، تأليف المحقق حسن المصطفوي، ط١، الناشر: مركز نشر العلامة المصطفوي، مطبعة اعتماد، ١٣٨٥هـ. ش.

٥- التعبير القرآني، تأليف الدكتور فاضل صالح السامرائي، جامعة بغداد- بيت الحكمة، بغداد- العراق، د.ط، ١٩٨٦- ١٩٨٧م.

٦- دلالة السياق، تأليف رَدَّة الله بن رَدَّة بن صيف الطَّلحي، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، ١٤١٨هـ.

٧- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تأليف شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العَكري الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمود الارناؤوط، دار آبن كثير، دمشق – لبنان، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٨- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، تأليف الدكتور صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠٠٠م.

٩- كتاب الألفاظ المترادفة، تأليف أبي الحسن علي بن عيسى الرماني ت٤٨٣هـ، تحقيق: محمود الشنقيطي، مطبعة الموسوعات، مصر، ١٣٢١هـ.

١٠- كتاب العين، تأليف أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ت١٧٥هـ، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، الدكتور إبراهيم السامرائي، دار الشؤون الثقافية والنشر، بغداد العراق، ١٩٨٤م.

١١- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، تأليف الدكتور طه عبد الرحمن، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، الدار البيضاء – المغرب، ٢٠٠٦م.

١٢- لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والإجراء، تأليف الدكتور نعمان بو قرة، دار الكتب العلمية، محمد علي بيضون، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

١٣- المدرسة القرآنية، تأليف الشهيد آية الله السيد محمد باقر الصدر، مؤسسة الثقلين، سوريا دمشق، كربلاء- العراق، د.ط، د.ت.

١٤- معجم مقاييس اللغة، تأليف أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت٣٩٥هـ، تحقيق: عبد السلام

محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٥- المعجم الوسيط، تأليف مجموعة مؤلفين، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة- مصر، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٦- مفاتح تدبُّر القرآن والنجاح في الحياة، تأليف الدكتور خالد عبد الكريم اللاحم، نسخة الكترونية.

١٧- مفردات ألفاظ القرآن، تأليف الراغب الأصفهاني ت٥٠٢هـ، تحقيق: داوود صفوان، ط٢، طليعة النور، قم – إيران.

١٨- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تأليف محمد علي التهانوي، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان- بيروت، ١٩٦٩م.

a. After submission، the author will receive notification that the article has been received

b. The author whose article is accepted for publication will be notified by the board of editors about the date of publication.

c.The articles which need modification and changes will be sent back to their authors in order to do the required changes.

d. Authors whose articles are rejected will receive notification of this decision without giving reasons.

e. A researcher destowed a version in which the meant research published.

12.Priority of article publication depends on:

a.Participation in the conferences held by the publisher .

b.The date of receiving the article by the editor.

c.The date of receiving the modified articles،and

d.The diversity of research areas in the journal.

13. An author can not get back his/her article if it is being under review by the editorial board unless there are substantive reasons، and this should be within two weeks of receiving the article.